الخطاب الشعري الصوفي عند الأمير عبد القادر من التصوف الظاهر إلى التصوف الخالص*

The Sufi poetic discourse of Prince Abdul Qadir From apparent mysticism to pure mysticism

د. كمال لعور
Dr Kamel Laouer
كلية الآداب والفنون، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)[1]
البريد الالكتروني: laouer.kamel@yahoo.com

ملخص : تشبع الخطاب الصوفي الشعري الأميري بآداب المتصوفة ومواجدهم، ولاكما تردد في ميدانهم الفكري، فشهد شعره تغييرا على مستوى المبنى والمعنى بطول المراس، وتوشح بالغموض والرموز عندما يسعفه حال البوح، وقد يرتد أحيانا إلى البساطة والسطحية لبقاء الأمير رهين نهج الأولين ومشدودا بقوة إلى أدب عصره، وفي أشعاره التي اتخذناها نماذج للتدليل، وعكفنا على قراءاتها في هذا المقال ما يثبت توغله في عمق المجاهدة والمكاشفة وعدم اكتفائه بالتصوف الزهدي الظاهري، فكان تقاطعه مع فكر الشيخ ابن عربي متجليا عيانا في خطابه الصوفي الشعري، متجافيا عن النظرة الانتقادية الحادة التي وجهت إلى هذا الشيخ في قضايا شائكة خضبت عالم الروحانيات الإسلامي.

كلمات مفتاحية: تصوف، روحانيات، شعر جزائري، وحدة الوجود، أمير.

Abstract: The Amiri Sufi poetic discourse was saturated with the etiquette of the Sufis and their sorrows, and echoed their truth in their intellectual field. His poetry witnessed a change at the level of structure and meaning for long exercise. He is veiled with mystery and symbols when the state of disclosure helps him, and he may sometimes revert to simplicity and superficiality because the prince remains dependent on the approach of the ancients and is strongly attached to the literature of his time. Further, in his poems, we have taken as cases to ascertain, and we have devoted ourselves to reading them in this article, what proves his penetration into the depth of striving and revealing, and not being satisfied with apparent ascetic mysticism. His intersection with the thought of Sheikh Ibn

*
تاريخ استلام البحث: 2021/10/10 تاريخ قبول البحث: 2022/02/03 تاريخ النشر:2022/05/15

Arabi was clearly evident in his poetic mystic discourse, straying from the sharp critical view directed at this Sheikh on thorny issues that affected the world of Islamic spirituality.
Keywords: mysticism; spirituality; Algerian poetry; Pantheism; prince.

1. مقدمة:

استولت الرموز الصوفية على كل من نقب في هذا الميدان وكان الأمير عبد القادر واحدا ممن جادوا بتعابيرهم ودار شعره العربي حولها، بل إننا نجد المتصوفة في القرن العشرين يسيرون في الطريق ذاته مع المبالغة والشطط للتعبير عن العالم الداخلي الباطني، وكثيرا ما كانت لحظات الوجد والجذب تسوق المتصوفة إلى إنزال المعاني الروحانية بتعابير ذات مدلولات حسية، وكثيرا ما عشق المتصوفة لحظات القرب وحضرات الكشف والترقي حينما تنتشي الأرواح بقربها. ومن قوي حبه تسرمد شربه على حد تعبير بعض أقطابهم، وهو ما يؤشر على انتقال الأمير عبد القادر من التصوف الظاهر إلى الباطن، فما الذي أفاده الشعر الجزائري من هذا الانتقال؟ وكيف انعكس الأمر على البضاعة الشعرية الأميرية المزجاة في كتبه؟

يسعى هذا المقال إلى كشف النقاب عن الخلفية الفكرية التي وجهت الأمير نحو التصوف الباطني، واستظهار ذلك على لغته الشعرية ومعانيه لنتبين مدى تأثير التصوف على شعره، باعتباره جاء في مرحلة هامة استدبرت الفترة العثمانية، ودخلت غمار العهد الاستعماري بكل ما فيه من تغيير.

2. الفيض الصوفي في حياة الأمير:

ينحدر التصوف الجزائري إلى القرن الخامس الهجري، حيث تجلى بقوة في عهد أبي مدين التلمساني(1)، ولكنه ازداد قوة وجسارة في العهد العثماني وما بعده، ويعود ذلك إلى جملة من الأسباب أهمها سقوط الخلافة الاسلامية، وما تبعه من انهيار في المجتمع العربي والإسلامي، وما صحب ذلك من فقدان الاستقرار المادي في الدنيا، فانصرف الناس إلى التعبد الأخروي. كما أن جنوح حكم الأتراك إلى الاستبداد أبعد الناس عن تعاطي السياسة أو التفكير في الواقع المؤلم، فأدمنوا الزهد والتصوف، أضحى التصوف في عهد الأمير مطلبا ضروريا لأن الزاوية تحولت إلى

مؤسسة شبه عسكرية تنظم الصفوف لمواجهة المستعمر الفرنسي والإعداد للجهاد استمرارا أيضا للرباط الذي عرف قبل ذلك، فكان الظرف السياسي سببا في تنامي التصوف العملي الجهادي.

كان الأمير عبد القادر منتميا للطريقة القادرية[2] وهي احدى أشهر الطرق الصوفية الجزائرية إلى جانب التيجانية والدرقاوية والسنوسية، ونظرا لسعة اطلاعه وإلمامه بثقافة عصره كتب في التصوف نثرا وشعرا، فكان من أشهر مؤلفاته الصوفية: المواقف، وكتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، "ويرى الركيبي أنهما كتابان يظهران ثقافة الشاعر الواسعة، ومدى استيعابه للتراث الإسلامي السني والصوفي"[3].

ونظرا لعمق أفكار الأمير الصوفية وتنوعها يرجح الدارسون أنها آخر ما سطر الشاعر في سنواته الأخيرة التي قضاها بدمشق، فقصر قلمه على الجانب الديني السني الصوفي، وعلى تأكيد نزعة الوحدة الإسلامية.

ويعود اهتمامه بالتصوف إلى حداثة سنه عندما انتقل رفقة والده إلى الحج سنة 1241هـ برا، وعندما عادا انتقلا إلى دمشق بالشام لزيارة الصلحاء والعلماء، وأخذ الأمير بها عن الشيخ خالد المجدوي الطريقة النقشبندية، وسار إلى بغداد، وأخذ الطريقة القادرية عن الشيخ محمود الكيلاني، وظل مرتبطا بالتيار الصوفي، حيث أنه بعد ذلك بأربعين سنة، أي بعد جهاده ونفيه، يتوجه إلى مكة ويقيم بها وبالطائف سنة ونصف، فيأخذ بمكة الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد الفاسي، كما أخذ الطريقة المولوية على حضرة الدرويش صبري الشيخ بدمشق.

خص الأمير عبد القادر شيخه محمد الفاسي[4] برائية يشيد فيها بمكانته الصوفية ودوره في توجيه الأمير فيقول في بعضها:

عيَاذِي مَلاذِي عُمدتِي ثم عُدتِي
وكَهفِي إذا أبْدَى نَواجِذه الدَّهـر
غِياثِي من أيْدي العُداة ومُنقِذي
مُنِيري مُجِيري عندما غَمَّنِي الغِمر[5]

وقد سبق وأن استحضر تعلقه بطيبة ومكة ومعالمها ومشكاة النبوة المحمدية التي ظل شغوفا بها منذ صباه، حينما يقول وهو لا يخفي مرارة الاستعداد لمفارقتها:

تَذكَّرت وُشكَ البَينِ قَبل حُلُوله
فَجادت عُيونِي بالدُموعِ على الخَدّ
إلى الله أشكُو ما ألاقِي من النَوى
وحَملِي ثَقِيل لا تقوم به الأيْدي
بِطيبَة طابَ العيشُ ثم تَمررت
حَلاوتُه فالنَحسُ أربَى على السَعد
مَنازِلُ من أهواهُ طفلا ويَافعا
وكَهلا إلى أن صِرتُ بالشيبِ في البُرد(6)

والمتصوفة يتعلقون بمشكاة النبوة معنى، وبمعالمها وآثارها الباقية مكانا، فرمزية المكان الحجازي المقدس تمثل لهم مصدر الإلهام الروحي، وقد كانوا يتزودون بعبق الممارسة الدينية حين ييممون للحج كل سنة.

يقول نجل الأمير محمد في ترجمته: "كان محافظا على السنن عاكفا على شهود الجماعة كثير الصدقات، وكان مرتبا راتبا في كل شهر للعلماء الصلحاء والفقراء، منتصبا لقضاء حوائج العباد، عاملا بتقوى الله في السر والجهر، متعبدا على مذهب سيدنا مالك، وتغلغل في آخر عمره في علوم القوم، وأظهر من دقائق الحقائق وعوارف المعارف ما يؤذن بسمو مقامه، وكان يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب معتزلا عن القريب والغريب، وله خلوة يتحنث بها بقصر بقرية أشرفية ضحنايا(7)، وكان مشتغلا عن مرض وفاته بالمراقبة والمشاهدة حتى أنه لا أنّ ولا تأوه إلى أن انتقل إلى رحمة ربه الكريم"(8).

وحسب شهادة ابنه فإن الأمير قد تعمق في التصوف، وتبحر في علومه حتى أدرك كما قال دقائق الحقائق، وعوارف المعارف.

وقد قام الباحث العربي دحو بجمع كل أشعار الأمير عبد القادر في طبعة جديدة لديوانه، فقد كان الباحثون يلتمسون الشعر الأميري في طبعة زكرياء صيام، أو طبعة محمد حقي لكن العربي دحو اجتهد وأخرج طبعة أخرى مزيدة تضم لأول مرة كل شعر الأمير "بما في ذلك أشعاره من كتابه المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد ومن المذكرات أيضا، رغم ما بدا فيها من ملامح الضعف

الفني، فلم يسقط منها المحقق شيئا التماسا للموضوعية، وتصديقا للهدف الأساسي من إعادة طبعه، وهو الجمع والتحقيق"[9].

ومن أهم المصادر العلمية التي أسهمت في تكوين شخصية الأمير عبد القادر العلمية خصوصا جانبها العقائدي ما يلي: الشفا للقاضي عياض[10]، الإحياء للغزالي[11]، والرسالة للإمام محمد بن أبي زيد القيرواني[12]، والملل والنحل للشهرستاني[13]، والفتوحات المكية وفصوص الحكم لابن عربي[14]، وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه[15]، وغيرها من المصادر وأمات الكتب.

ومن بين ثمانين قصيدة نظمها الشاعر في الفخر والغزل والمساجلات يوجد منها 15 قصيدة في التصوف، ما يعني من دون شك اهتمامه بالقريض الشعري الروحاني، واختياره الشعر للتنفيس عن أحوال المتصوفة ومقامات المحبين.

لقد شغل الأمير عبد القادر بالتصوف عملا في مقتبل العمر، وانثال منه عبقه في كبره شعرا ونثرا يتفاوت تعبيرا، وتجلى فيه الكثير من مظاهر نزعتهم الفكرية، وقد ردد بعض قضاياهم التي لم يتوقف الحديث عنها منذ ابن عربي وقبله، مثل الحب الإلهي، ووحدة الوجود، والخمرة التي شغلت طوائف الصوفية بمختلف طرائقهم، والفناء والمشاهدة التي هي جنة المريد الأرضية ومأربه.

وينبغي الإشارة إلى أن الناظر في الفكر الصوفي يراه نسيجا مشكلا من الفلسفة الباطنية واليونانية والرومانية، وهذه أصولهم ومناهجهم النظرية والعلمية تبوح بذلك[16]، ومما يتداول من ألفاظهم نتضح لك مشاربهم، فعندهم واجب الوجود، والعلة الفاعلة، والهيولي، والهباء وعلم المعاملة، والمكاشفة وعلم الباطن، كل هذه المصطلحات من نتاج هذه الفسلفات، بل يرى البعض أيضا أن التأمل في النظريات والمقامات والأحوال التي غشيت الفكر الصوفي، لا يمكن أن يفصلها أيضا عن العقيدة النصرانية والعقائد الوثنية القديمة، فقد كانت في الأصل العمود الذي ارتكن عليه الصوفية لبناء مذاهبهم ومعتقداتهم.

3. الحب الإلهي ووحدة الوجود:

من المعروف أن الحب الإلهي كان في حقيقته من الوسائل للظفر بالجنة الروحية، وهو الذي جعل الصوفية لا يرون غير المعاني، ولا يعبأون بالأعمال، حتى قالوا: ذلة العاصي أشرف من كبرياء المطيع؟ وهو حسب زكي مبارك يشبه المذهب الفلسفي الذي يسمى[17] Quiétisme، يؤمن أصحابه

بأن حب الله كاف في الوصول إلى نعمة الإخلاص، وتظهر أهمية هذه العاطفة السامية حين ننظر أثرها في الأدب، ونتعرف ما تركت من أقباس الحنان.

وقد وقف الصوفية في التعبير عن الحب الإلهي موقفين مختلفين: موقف المنشئين وموقف المنشدين. أما المنشئون فهم الأدباء الكبار الذين استطاعوا قرض الشعر في التشوق إلى الذات الإلهية، وأما المنشدون فهم الذين عجزوا عن النظم، ولكن لم يعجزوا عن تحويل الأشياء الحسية إلى معان روحية، فكان شعراء النسيب ملاذهم حين يغنون[18].

ويعزو الدارسون هذه الأفكار إلى مصادر مختلفة عرفت بالغنوصية أو العرفانية[19]، وهي إما شرقية كالتي انتشرت في الديانات الهندية والفارسية واليهودية، أو مصادر غربية كاليونانية والمسيحية والأفلاطونية الحديثة، وبعض الباحثين كعمر فروخ يرى الفلسفة الهندية والفكر الصيني مصدرا لكل هذه الآراء شرقية كانت أو غربية[20].

يقول الأمير عبد القادر:

يا عَظِيما قد تَجَلَّـى   كُلُ مُجل له تَجَلَّـــى
أنتَ مُبدِي كُلَّ بـادٍ   أنت أبَدي أنتَ أجلَـى
حُسنك البَاري تَعالى   أن نرى عنده مَثَــلا
كُلُّ حُسنٍ مُستعَـار   مِن جَمال قد تَدلَّـــى

فيبدأ أبياته بالتعظيم والإجلال للذات الالهية، ويسوق بعض صفاته الحسنى كالأبدية والعظمة والإبداء والخلق والعلو وانعدام النظير والشبيه، تنزيها للخالق جل وعلا، ثم يردف:

كُنتُ قَبلَ اليَوم صَبـا   أسْألُ المَحبُوبَ مَيــلا
فَأزالَ الستر عَنِّـــي   فَبدَا لي الفَصلُ وصْـلا
زَادنِي القُربُ احتِراقـا   فأنَا بالوَصلِ أُصْلَـى

ويظهر الشاعر كيف يتشوق للذات الإلهية ويتطلع لوصلها على دأب المتصوفة الذين هم بين وصل وفصل وقرب بعد صد، وما أن ينال الواحد منهم القرب حتى يصلى بالبعد والنأي، والغريب في أمر الشاعر أنه يصف حالة القرب بالصلي والاحتراق، وكأنه يظهر مدى مشقة نيل القرب، ومدى صعوبة التجلي النوراني على الطبيعة البشرية الضعيفة، "وأثر عن القوم أن من ألطف سكرات

الحب الشغل بالحب عن متعلقه، ويقارنون ذلك بما حدث لمجنون ليلى عندما جاءت إليه ليلى واصلة فقال لها: إليك عني، فإن حبك قد شغلني عنك"(21).

ومن خلال هذه العينة نرى سيطرة النزعة التقليدية على شعر الأمير مبنى ومعنى، وهذا حال أغلب الشعر الجزائري في هذه الفترة، حيث استوحى نماذجه من تراث السابقين حذو النعل بالنعل، ويسقط الحافر على الحافر عمدا بلا هوادة، ففي شعرهم تقليد يتفاوت مستوى لأساليب المتصوفة السابقين وموضوعاتهم وأفكارهم، خاصة وصف حالاتهم وانجذابهم أو مشاهدتهم، ونشوتهم في حالي السكر والمشاهدة.

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني صبر المحبين ما ناحوا ولا باحوا
أُرِيدُ كَتمَ الهَوى حِينا فَيمنعُنِي هَتكِي كَيفَ لا؟ والحُبُ فَضَاحُ(22)

وعن الحب الإلهي نتجت نظرية وحدة الوجود، فالصوفية لم يكفهم أن يكون لهم وجود ذاتي يمتاز عن وجود الناس، ولم يكفهم أن يعرفوا بالشوق إلى ذات الديان، وإنما وثب فريق منهم فادعوا أنهم جزء موصول بحقيقة أزلية هي حقيقة واجب الوجود، فالفريق الذي يحب الله كان يتشرف بنسبة العاشق إلى المعشوق، أما الفريق الثاني فلا يرى عاشقًا ولا معشوقًا، وإنما يرى شوقًا يتمثل في حنين الجزء إلى الكل، وهي وثبة جريئة في عالم المعقول(23).

وقد جاء في سفر المواقف(24) الذي نسب للأمير قوله: "كان الحق تعالى لحقيقته يقول: أنا، والعبد لجهله يقول: أنا، والعبد يقول: هو لشهوده من ربه البعد، والرب يقول: هو لكون ذلك مشهود العبد، فلما تنفس صبح العناية... وزال الهو من البين، والتبس أنا بأنا، عينا بعين، من غير امتزاج ولا اتحاد ولا حلول، إذ الكل في طريقنا وتوحيدنا معزول، فليس عندنا إلا وجود واحد، هو عين، وشرط الثلاثة عند الثلاثة تعدد الوجوه والعين، فلا يكدرون صفوفنا بجعجعتهم، ولا يروعوننا بمعمعتهم"(25).

تَعددتْ الأسمَاءُ وإِنِّي لَواحِد
ألا فَاعبُدوني مُطلقا نُزهَا فُـرَدا
أَنَا قيسُ عَامِرٍ وليلى مُحققا
مُحبا ومَحبُوبا وبَينهمـا وُدا
أنا العَبدُ المَعبُود في كلِّ صُورة

فكنتُ أنا رَبًا وكُنتُ أنا عَبدا[26]

وفي الأبيات الأخيرة تتراءى بعض شذرات وحدة الوجود التي آمن بها المتصوفة منذ ابن عربي[27]، ويجسدها بلا مراء قول الشاعر: أنا "العبد المعبود"، ألا يرى يمن خلال هذه النتفة تجلي الخالق في المخلوق؟

ويصرح بها في قصيدة أنا الحب والمحبوب:

أَنَا المحُبُ والمَحُبوبُ والحُبُّ جُملة
أَنَا العاشِقُ والمعشُوقُ سرًّا وإِعْلانا[28]

وقد كنى الأمير عبد القادر أفكارا صوفية روحانية جدلية في قصائد، ولم يجد ضيرا من التصريح بها عيانا في قصائد أخرى، فهي حاضرة بقوة وبالفعل في شعره، أما من يقول بعكس ذلك فهو واهم، فشواهد شعرية كثيرة حفظت لنا دلائل من هذه الحقيقة، بل إن بعضها لا يحتاج لأدنى تأويل أو تأمل ليستنتج الفكرة، ومنها قوله:

أَنَا حقٌ أنَا خَلقٌ   أنا ربٌ أنا عَبــدُ
أنا عَرشٌ أنا فَـرشُ   وجَحيمٌ أنا خُـــلد
أنا مَاء أنا نــَارٌ   وهَواءٌ أنَا صَـــلد
أنَا كمٌ أنَا كَيـفٌ   أنا وجْدٌ أنا فَـقد
أنَا ذاتٌ أنا وصفٌ   أنا قُربٌ أنا بُـعدُ
كلٌّ كونٍ ذاكَ كَونِي   أنا وَحدِي أنَا فردُ[29]

والأنا التي يستعملها الشاعر في المقطوعة الأخيرة ثمانية عشر مرة ليست أنانية ولا ذاتية بل هي تأكيد على وحدة الوجود، وهذه النظرية أثر من آثار فكر ابن عربي في التصوف الجزائري، أثناء زيارته ولقائه بشيخه أبي مدين بجاية، "بل أن بعض الباحثين كان يقول بأن شيخه أبا مدين قال بوحدة الوجود، وعدّ نفسه تلميذ أبي مدين في هذه الفكرة وفي غيرها من الآراء الفلسفية"[30]، وقد تسربت هذه النظرية إلى خطاب الأمير عبد القادر الشعري من فرط إعجابه بفكر ابن عربي[31] الذي خلب لب المريدين والفقراء والشيوخ، فلا يجد الأمير ضيرا من اتخاذه قدوة روحية في فيوضاته ودفقاته الفكرية.

وتتبدى أهمية ابن عربي في حقيقة أنه يمثل همزة الوصل بين التراث الصوفي والفلسفي السابق عليه، وبين المفكرين الذين جاؤوا بعده، والذين لم يكد ينجح واحد منهم في تجاوز تأثير فلسفته بالسلب أو الإيجاب بما في ذلك ابن تيمية ومدرسته، وقد أسهم ابن عربي في بلورة كثير من المفاهيم والتصورات التي توجد عند سابقيه بشكل ضمني غامض، وكان همزة وصل بين المتصوفة السابقين خاصة الذين لم تصلنا كتبهم، أو وصلتنا بعض أقوالهم الغامضة المتناثرة مثل الحلاج، التستري، النفري، وابن مسرة، واللاحقين عليه، وهذا ما يعني أيضا أن تأثر الأمير بابن عربي وطلبه دفنه بجواره[32] يدل على أنه تبنى الكثير من أفكاره بإخلاص، بدافع أنه جمع في فكره الصوفي ما تفرق بين الكثير من الشيوخ، ولا عجب في ذلك فابن عربي "خلف ثروة لفظية في فلسفة التصوف كانت عدة متصوفة وحدة الوجود في العالم الاسلامي عدة قرون، وحولها حامت جميع المعاني التي طرقها كتابهم، وما من صوفي إسلامي أتى بعد ابن عربي شاعرا أو غير شاعر، عربيا كان أو فارسيا أو تركيا، إلا تأثر بمصطلحه، ونطق عن وحي كلمه"[33].

ويستعمل الأمير عبد القادر أسلوب التضاد في الشاهد الشعري السابق لإثبات الكلية، فالضدية ليست تناقضا وإنما تأكيد على الشمولية وهيمنة الخالق على الكون، وعلى فناء الجزء في الكل في وحدة متناغمة، فيجعل النار في مقابل الماء، والحق في مقابل الخلق، والعرش في مقابل الفرش، والجحيم في مقابل الخلد، والفقد في مقابل الوجد، والكم في مقابل الكيف.

والقصائد الأميرية في التصوف تقليد للقدماء في المواضيع والأفكار والصيغ، وهي انعكاس صرف لما هيمن على البيئة الصوفية قبله وما وصلت إليه في عهده، وهي بيئة يراها الركيبي جانحة في الإسراف والمبالغة والشطط في معالجة قضايا الفكر الصوفي[34]؛ وقد يلمح الباحث المدقق في أشعاره تناقضا في بعض آراء الأمير الصوفية، وهي لا تقدح في كونه صوفيا سنيا كما أقر بذلك في أكثر من موقف، ولكنها تثبت بجلاء تأثره بأفكار غيره وتقليده لهم في الشكل والمضمون، فيغيب الغربال السني أحيانا، وتمرق أفكار شائكة مجّها الفقهاء، وهي الحجة التي حاول من خلالها الركيبي تبرير الشطط في الأفكار الصوفية التي تتبدى في نصوص الأمير الشعرية.

إن نظرية وحدة الوجود شغلت كثيرا من الصوفية، وشطرتهم شطرين: شطرا يؤثر الرفض، وشطرا يؤثر القبول، وكان لمعتنقيها ضحايا أشهرهم الحلاج، ولكن لا بد من الاعتراف بأن التصوف في جملته يرجع إلى هذه النظرية؛ إذ كان الصوفي الحق لا يهمه إلا الفناء في الله، فإن لم يكن فناء

الجزء في الكل فهو فناء العاشق في المعشوق، وقد تمظهرت الصورتان في أشعار الأمير عبد القادر، وربما كان تهيبهم من إعلان هذه النظرية نوعا من التقية وإيثار السلامة من مكايد الناس[35]، لربما سابقة الأمير في الجهاد وبسالته جعلته يجهر بهذه الحقيقة بلا أدنى وجل، مع أنه أحيانا يلوم عصره على عدم تقبله لأفكار المتصوفة فيقول متحسرا:

عِندي مِنَ العِلمِ لُبُّهُ وجَوهرَه
والنَّاس أعينُهم تَرنُو الى الصُدف
قد قيَّدتهم عَوائد وثَبطَهُـم
تَقليد من يَمشِي نَحو الظُلمة السَّدَف
فَلو وَجدتُ له أهْلاً لَبُحتُ بِهِ
مُستَخرِجا كَنزَهُ المَخفُوفِ بالطُرفِ
لَكِنَ أهلَهُ قد مَضُوا فَلا طَالِب
تَلقَاهُ يَسمُو إلى العَليَاء والشَرَف

لا يخفى على المتأمل في أفكار الأمير الصوفية أن جذورها تمت بصلة وثيقة إلى ابن عربي دفين جبل قاسيون دمشق، وهي التربة نفسها التي اختار الأمير أن يرقد بها قبل استعادة جثمانه بعيد الاستقلال، والمطلع على نصوص الفصوص أو الفتوحات يرى شبها في الأفكار بين الرجلين تجاوز حد الإعجاب إلى الإدمان، فكانت كتابات ابن عربي بالنسبة للمتصوفة كأنها توجيهات عفوية للمتذوقين، ومن ذلك قول ابن عربي: "فالعابد لا يزال تحت سلطان هواه، ثم رأى المعبودات تتنوع في العابدين، فكل عابد أمرا ما يكفر من يعبد سواه، والذي عنده أدنى تنبه يحار لاتحاد الهوى، بل لأحدية الهوى، فإنه عين واحدة في كل عابد، "فأضله الله" أي حيّره على علم بأن كل عابد ما عبد إلا هواه ولا استعبده إلا هواه سواء صادف الأمر المشروع أو لم يصادف، والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه، لذلك سموه كلهم إلها مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك، هذا اسم الشخصية فيه، والألوهية مرتبة تخيل العابد له أنها مرتبة معبوده، وهي على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد المعتكف على هذا المعبود في هذا المجلى المختص، ولهذا قال بعض من عرف مقالة جهالة "ما نعبدهم إلا ليقربونا من الله زلفى" مع تسميتهم إياهم آلهة حتى قالوا أجعل الآلهة إلها واحدا، إن هذا لشيء عجاب، فما أنكروه بل تعجبوا من ذلك فإنهم وقفوا مع كثرة الصور ونسبة الألوهة لها، فجاء الرسول ودعاهم إلى إله واحد يعرف ولا يشهد

بشهادتهم أنهم أثبتوه عندهم واعتقدوه في قولهم "ما نعبدهم إلا ليقربونا من الله زلفى" لعلمهم بأن تلك الصور حجارة، لذلك قامت الحجة عليهم بقوله قل سموهم، فما يسمونهم إلا بما يعلمون[36].

والشطط باد في هذه التفاسير القرآنية وهي مما تشربه بعض المتصوفة المسلمين فهاجت قلوبهم للقول بوحدة الوجود، وصادفت عند بعضهم هوى وقاد، حتى وجد في "فصوص الحكم والفتوحات وأشباه ذلك ما يمدح الكفار، مثل قوم نوح وهود وفرعون، وغيرهم، وينتقص الأنبياء كنوح وابراهيم وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين، كالحلاج بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج، ونحوه كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية، فإن الجنيد قدس الله روحه كان من أئمة الهدى، فسئل عن التوحيد فقال: إفراد الحدوث عن القدم، فبين أن التوحيد أن تميز بين القدم والمحدث، وبين الخالق والمخلوق، وصاحب الفصوص أنكر هذا، وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له: يا جنيد، هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما؟ نخطأ الجنيد في قوله إفراد الحدوث عن القدم، لأن قوله هو إن وجود المحدث هو عين وجود القديم، كم قال في فصوصه، ومن أسمائه الحسنى (العلي) على من؟ وما ثم إلا هو، وعن ماذا؟ وما هو إلا هو، فعلوه لنفسه وهو عين الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية لذاته، وليست إلا هو"[37].

ولقد قسم الصوفية التوحيد تقسيما عجيبا ما أنزل الله به من سلطان، وليس له أصل في دين الإسلام، ولم يقل به أحد من أئمة أهل السنة على الإطلاق، فلا إله إلا الله عندهم هي توحيد العامة، ولا اله إلا هو توحيد الخاصة، ولا هو إلا هو توحيد خاصة الخاصة، وهذان النوعان محل اعتبار عند الاتحادية والحلولية[38]، وعليهما يدور مفهوم الفناء[39].

يقول الأمير أيضا:

أيَا أنَا مَن أكُون إن لم أكُن أنتَ
و يا أنت مَن تكُون إن لم تكُن أنا
ما بَالُكم قُلتُم إله وعابِـد
فَكَثَرتُم لذلك طَاشَت عُقولُنـا
إذا رُفعَت من بَيننا العَينُ والألف
فقد رُفعَ السِترُ المُفرقُ بَيننا

وذلك حِينَ لا أنا لك عَابـــــد
ولا أنت مَعبُودٌ فَزالَ حِجابُنا (40)

نرى أن التعابير بسيطة تعبر عن لغة عصر الشاعر وما وصلت إليه حالة الشعر ببلدنا، أو حتى بالأقطار العربية، إذا وضعنا في الحسبان أن بعض شعر الأمير نسج ببلاد المشرق العربي بدمشق، خاصة أشعاره الصوفية، لكنه من الناحية الفكرية ثري، فهو لا يكشف فقط تعاطي فكرة الوحدة في التصوف الجزائري، بل يظهر جرأة الشاعر في التصريح بها كأنه لا يخشى سطوة الفقهاء، بل لا يرى في ذلك ضيرا حتى أنه فوق ذلك يحتج على الفصل بين محل العبد ومحل الإله، ويراه من الشطط والإجهاد لفرض العبادة حتى طاشت العقول، وهذه العبارة الأخيرة قوية لا تكتفي بتوجيه نقد ديني بل تلوم الفاصلين على إتعابهم العقول فيما لا يفيد.

وتدخل هذه الأشعار ضمن التصوف الخالص الذي يهتم بقضايا خاصة أثارت الجدل بين الناس وبين المتصوفة والفقهاء، يأتي على رأسها الغزل الإلهي والخمرة الإلهية ووحدة الوجود والنور المحمدي، وهي في مجملها أفكار فلسفية أقحمت في التعبير الصوفي والممارسة الروحية، بعد "أن دخلته تيارات فكرية كثيرة دخيلة على ما في الدين الإسلامي من بساطة، وصحبت معها ما صحبت من آراء أحدثت ردود فعل مختلفة بين علماء الشريعة وبين رجال الحقيقة، كما أحدث ذلك الصراع بين اتجاهين ينظران إلى الدين وفهمه من زاويتين مختلفتين: فعلماء الشريعة يحكمون ظاهر النص من القرآن والحديث بينما رجال الحقيقة يؤولون هذه النصوص، وينظرون إليها من الظاهر والباطن، فالحقيقة عندهم لا تكمن في الظاهر، ظاهر النصوص أو ظاهر الأشياء، وإنما تكمن في باطنها"(41).

خلاصة القول في هذا الباب، أن الأمير عبد القادر فاضت عنه الإشارة والعبارة في باب شعر الحب الإلهي، على دأب أهل الحقيقة ممن تكلموا جميعا في الحب؛ لأن هذه الحال هي الفيصل بينهم وبين أهل الشريعة، الذين يعبدون الله طمعا في الثواب وخوفًا من العقاب(42)، ولا يستقيم حال المتصوف إلا إن خلص من دنياه وأخراه، فلا يكون له مأرب غير لقاء الحبيب.

4. خاتمة:

تسنى لنا في هذه الورقة البحثية التعرف عن قرب على انعكاس التصوف على شعر الأمير عبد القادر، عندما سلك مسلك الترميز للتعبير عن الحقيقة الصوفية المنشودة، أو توخى الوضوح واليسر في

اللهج بالحقيقة الصوفية الملتبسة على خلق كثير، فكانت نصوصه خير شاهد على حال الشعر في حقبته. ومن بين النتائج المتوصل إليها ما يلي:

- استكشفنا ترعرع الأمير عبد القادر وتشربه منذ حداثة سنه مذهب التصوف، فكان الرباط والجهاد دأبه في مقتبل العمر، ثم كانت الكتابة الصوفية نثرية وشعرية منتهاه في أواخر العمر، فجمع بين القول والفعل والقلم والسيف جمع عبادة ورياضة.
- لم تكن التجربة الصوفية الأميرية في باب الخطاب الشعري الصوفي أصيلة في كل مستوياتها، بل إنه قلد السابقين، واستحلب منهم أفكارهم الفلسفية خاصة الفيلسوف "ابن عربي"، مما أوقعه أحيانا في الشطط الذي مجّته طوائف الفقهاء، ورضي به خلصاء التصوف.
- إن الخطاب الشعري الصوفي الأميري على العموم غني الأفكار، متنوع المداخل، ترتفع تعابيره أحيانا إلى مستوى فني تصويري خلاق، وتنحدر أحيانا إلى السطحية والتكرار، وفي ذلك تأكيد على أن الأمير لم يستطع الفكاك من لغة عصره التي لجمت الخطاب الأدبي بلجام التقليد.
- عكس الخطاب الصوفي الأميري أهم القضايا التي شغلت المتصوفة، ودارت حولها إشاراتهم بالأخص الحب الإلهي، والفناء والمشاهدة وخمرة المتصوفة، كما أنه وقف من الفلسفة والعقل موقفا سلبيا، منتقدا علم الرسوم والقشور، مغلبا العلم اللدني القائم على الذوق والحدس.

5. الهوامش:

[1] ينظر يعقوب يوسف بن يحي التادلي: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي يعلى العباسي السبتي، منشورات كلية الآداب الرباط، ط 2، 1997، ص: 320.

[2] تنسب القادرية الى الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني المتوفى سنة 561 هـ، وهو يعتبر عند المتصوفين سلطان الأولياء، وقطب الأقطاب والغوث، انتقل أولاده بعد وفاته إلى الأندلس والمغرب العربي، والزاوية الأم للطريقة توجد ببغداد، ولها فروع بالجزائر، وأول من أسس فرعا للقادرية بالجزائر هو مصطفى بن مختار الغريسي سنة 1200، وقد حاول البعض أن ينسب المقاومة على عهد الأمير عبد القادر للطريقة القادرية، وهو ما يرفضه المؤرخ أبو القاسم سعد الله، يقول يرى أن الأمير استفاد من دعم والده الروحي وانتمائه الطرقي، لكن مبايعة الأمير والتفاف الجماهير من حوله مهما كانت عقيدتهم الصوفية جعل القضية تخرج عن نطاق الطريقة إلى النطاق الوطني. ينظر تاريخ الجزائر الثقافي ج 4، عالم المعرفة، الجزائر، 2017، ص: 44.

[3] عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص: 246.

[4] شيخ صوفي مغربي 1760 ـ 1863، يتبع نهج الطريقة الشاذلية.

[5] ديوان الأمير عبد القادر: جمع وتقديم، شرح وتحقيق العربي دحو، منشورات تالة، ط 3، الجزائر، 2007، ص: 107.

[6] المصدر نفسه، ص: 100، عنوان المقطوعة: مناجاة أحد.

[7] مدينة سورية تقع جنوب دمشق تابعة إداريا لمحافظة ريف دمشق ومنطقة داريا.

[8] ترجمته بقلم الأمير محمد ولد الشاعر، ديوان الأمير عبد القادر، ص: 28.

[9] ديوان الأمير عبد القادر: جمع وتقديم، شرح وتحقيق العربي دحو، منشورات تالة، ط 3، الجزائر، 2007، ص: 6.

[10] القاضي عياض 476هـ ـ 544هـ، اسم كتابه الكامل: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، كتاب في شمائل النبي الجامعة لخصال النبي صلى الله عليه وسلم، حتى قيل في تقريضه لولا الشفا لما عرف المصطفى.

[11] مصدر هام للتصوف ذلك الذي كتبه أبو حامد الغزالي 450 ـ 505هـ، أحدث ضجة عارمة عندما دخل المغرب العربي بين مؤيد ومعارض، ثم تقبله الناس قبول حسنا، وقالوا معرضين بالفقهاء الذين رفضوه: بع اللحية واشر الإحياء، وقال الناس في تقريضه: من لم يقر أ الإحياء فليس من الأحياء.

[12] من أشهر الرسائل في الفقه المالكي بالمغرب الإسلامي، ألفها القيرواني 310 ـ 386هـ، تضم أبوابا في العقائد ومسائل الفقه.

[13] كتاب متميز في التعريف بالطوائف الإسلامية، ودراسة الأديان السماوية والاعتقادات الوثنية، مما يدل على إلمام الأمير بقضايا المقارنة بين الأديان، وهو ما جعله سمحا وناجحا في الصلح بين المسلمين والمسيحيين في تلك الفتنة العارمة التي حلت بدمشق. ألفه أبو الفتح الشهرستاني 479 ـ 548هـ.

[14] ابن عربي 558 ـ 683هـ، الفتوحات المكية من ألمع كتب ابن عربي، أصله رسالة سماها الفتح المكي ثم وسعها إلى 4000 صفحة، ويرى الكتاب منحة من منح طوافه وحجه لأنه كتبه بأم القرى ملهما عن ربه، وأنه من حضرة القرآن وخزائنه، لأنه بدعواه أوتي مفاتيح الفهم فيه، والبعض يقدح في نصوصه ويسميها القبوحات الهلكية، أما فصوص الحكم فمن أشهر مصادر التصوف الإسلامي التي تروي أسرار الأنبياء والرسل، وعلاقة الإنسان مع الكون ومع خالق الكون، ويرى بعض المحققين له أن كلاما في الإلحاد والاتحاد والحلول والوحدة المطلقة دس للشيخ ابن عربي، أما الشيخ ابن تيمية فيعتبر ما جاء في الكتاب كفرا باطنا وظاهرا، وباطنه أقبح من ظاهره، أنظر مبحث وحدة الوجود في هذا المقال.

[15] محمد بن يعقوب مسكويه 320 ـ 421هـ، فيلسوف وشاعر ينحدر من أصفهان، وكتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق من أوائل الكتب الإسلامية في علم الأخلاق بالمفهوم العلمي والفلسفي، وقد ورد عنوان الكتاب في تقديم طبعة ديوان الأمير عبدالقادر، باسم تهذيب الإخوان وهو غير صحيح، ربما سقط سهوا ممن قدموا هذه الطبعة، ينظر ديوان الأمير، ص: 17.

[16] أبو عبد الرحمن علي المرتضى: موازين الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، دار الإيمان، الإسكندرية، 2002، ص: 100.

[17] حالة من الاتحاد المستمر مع الله، حيث تصبح الروح غير مبالية بالأعمال وحتى بخلاصها، وهي نظرية دينية مسيحية ظهرت في إسبانيا، ثم في أوروبا بين طوائف المسحيين.

[18] زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الهنداوي، المملكة المتحدة، 2012، ص: 48.

[19] هي مصطلحات حديثة تطلق على مجموعة من أفكار ومعارف من الديانات القديمة، التي انبعثت من المجتمعات اليهودية في القرنين الأول والثاني الميلاديين، لتفسير التوراة.

[20] ينظر: المرجع نفسه، ص: 40.

[21] ينظر: عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية، دار صادر، بيروت، ص: 225.

[22] ينظر: الأمير عبد القادر: الديوان، ص: 115، من قصيدة مسكين لم يذق طعم الهوى.

[23] زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص: 49.

[24] لم نعتمد على كتاب المواقف كثيرا، لوجود من يشكك في صحة نسبته إلى الأمير عبد القادر، ومنهم بعض أفراد عائلته، ومحصلة الكلام في ذلك أن الكتاب مدسوس على الأمير من غلاة الصوفية، من أمثال محمود الأرناؤوطي، ومحمد الخاني، وحتى المخطوطات الخاصة بكتاب المواقف التي زعم أنها بخط الأمير، كشف بعض المحققين أنها ليست بخطه، وقد طبع الكتاب بعد وفاة الأمير بما يقرب الثلاثة عقود، وبالتالي فتهمة وحدة الوجود والاتحاد التي نسبت إلى الأمير عبد القادر بسبب ما ورد في المواقف مردودة، خاصة وأنه كان سنيا حتى النخاع، ومصلحا، ينظر مقال: شبهة وحدة الوجود والاتحاد لعلي الصلابي بموقع الجزيرة: www.aljazeera.net.

[25] ينظر: الموقف السادس من كتاب المواقف للأمير عبد القادر، ج 1، تح عبد الباقي مفتاح، دار الهدى، الجزائر، 2007، ص: 11.

[26] الأمير عبد القادر: الديوان، ص: 120.

[27] اختلف العلماء في ابن عربي، فمنهم من يراه من الأولياء المحققين، مثل عبد الوهاب الشعراني، الفيروز آبادي، والسيوطي، وأحمد المقري، ومنهم من يراه من أهل البدعة والمروق حسب كتاباته الباطنية، مثل ابن تيمية وابن خلدون، وابن عربي نفسه يفهم من كلامه أحيانا قوله بالوحدة والحلول، وأحيانا أخرى يقول، من قال بالحلول فدينه معلول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، وصح عنه أيضا القول إن الله تعالى واحد بالإجماع، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يتحد في شيء، وقال فيه ابن تيمية: ابن عربي صاحب فصوص الحكم، وهي مع كونها كفرا فهو أقربهم إلى الإسلام، لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرا، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره، بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الذي يرى فيه الحق تارة، والباطل أخرى، والله أعلم بما مات عليه، ينظر مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 2، مجمع الملك فهد، السعودية، 1995، ص: 143.

[28] الأمير عبد القادر: الديوان، ص: 117.

[29] المصدر نفسه، ص: 118.

[30] عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ج 1، ص: 245.

[31] يشير الباحث بوزيد بومدين أن الأمير فتح ما استغلق من فتوحات ابن عربي، وكان في كتابيه المقراض الحاد وتنبيه الغافل منتهجا طريق التصوف الزهدي، الذي يهتم بالسلوك دون الاهتمام بالتصوف العرفاني المتعلق بالمجاهدة والكشف، فكانت الفتوحات المكية إعادة اكتشاف لروحانيته، خاصة وأن الأمير عايش مثل ابن عربي محنة الهجرة، وظلم وجحود أهل الظاهر، فكتب المواقف، ينظر الفجر بتاريخ 2011.09.11.

[32] بعض الباحثين ينفي أن الأمير أوصى بدفنه بجوار قبر ابن عربي ليتخذ كدليل على تبني عقائده، وصحة نسبة كتاب المواقف إليه، والحقيقة أن الأمير اشترى أرضا بمقبرة الدحداح ليدفن فيها، وأوقفها على ذريته، ولكن بعض المشايخ

أصروا على دفنه بجوار ابن عربي. ينظر مقال شبهة وحدة الوجود والاتحاد لعلي الصلابي بموقع الجزيرة: www.aljazeera.net.

[33] ينظر محي الدين بن عربي: فصوص الحكم، شرح عبد الرزاق القاشاني، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016، ص: 7.

[34] ينظر الشعر الديني الجزائري الحديث، ج 1، ص: 246.

[35] زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ص: 49.

[36] محي الدين بن عربي: فصوص الحكم، ص: 197.

[37] ابن تيمية، فقه التصوف، تعليق الشيخ زهير شفيق الكبي، دار الفكر العربي، بيروت، ط 3، 1993، ص: 140.

[38] وحدة الوجود هي القول بأن وجود الكائنات عين وجود الله تعالى، ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة، أما الحلول هو أن يكون الشيء حاصلا في الشيء، ومختصا به، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر تحقيقا، أو تقديرا، ومن هؤلاء من يقول بحلوله تعالى وتقدس في من حقق الولاية، وهذب نفسه في الطاعة، وصبر على لذات النفس وشهواتها، فارتقى في درجات المصافاة، فيصفو عن النفس البشرية، فتحل فيه روح الإله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، أما الاتحاد فاتحاد شيء بشيء آخر أي شهود الحق من غير حلول أو ملابسة، وقد حدث خلط بين الصوفية والباحثين في هذه المصطلحات، فقد يطلق الاتحاد ويعنى به وحدة الوجود، وقد يطلق البعض الحلول ويريد به وحدة الوجود كذلك، ينظر موقع العقيدة والحياة للأستاذ أحمد بن عبد الرحمن القاضي:-www.al aqidah.com

[39] أبو عبد الرحمن علي المرتضى: موازين الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، ص: 97.

[40] المصدر نفسه، ص: 301.

[41] عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ج 1، ص: 239.

[42] ينظر زكي مبارك: التصوف الإسلامي، ص: 275.

قائمة المصادر والمراجع:

أ. الكتب

1) ابن تيمية: فقه التصوف، تعليق الشيخ زهير شفيق الكبي، دار الفكر العربي، بيروت، ط 3، 1993.
2) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، عالم المعرفة، الجزائر، 2017.
3) أبو عبد الرحمن علي المرتضى: موازين الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، دار الإيمان، الإسكندرية، 2002.
4) الأمير عبد القادر: الديوان: جمع وتقديم، شرح وتحقيق العربي دحو، ط 3، منشورات تالة، الجزائر، 2007.

5) الأمير عبد القادر: المواقف في الوعظ والارشاد، ج 1، تح عبد الباقي مفتاح، دار الهدى، الجزائر، 2007.
6) زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، الهنداوي، المملكة المتحدة،2012.
7) عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي الجزائر، 2009.
8) عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية، دار صادر، بيروت.
9) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 2، مجمع الملك فهد، السعودية، 1995.
10) يعقوب يوسف بن يحيي التادلي: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي يعلى العباسي السبتي، منشورات كلية الآداب الرباط.
11) محي الدين بن عربي: فصوص الحكم، شرح عبد الرزاق القاشاني، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة.

ب.الأنترنيت

1) أحمد بن عبد الرحمن القاضي، موقع العقيدة والحياة للأستاذ: www.al-aqidah.com
2) علي الصلابي مقال شبهة وحدة الوجود والاتحاد بموقع الجزيرة: www.aljazeera.net